العدد الخامس عشر - السنة الثامنة
ذو الحجة ١٤٠٩ هـ - يوليو ١٩٨٩ م

الوثيقة

دورية تاريخية محكمة

يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بقطر

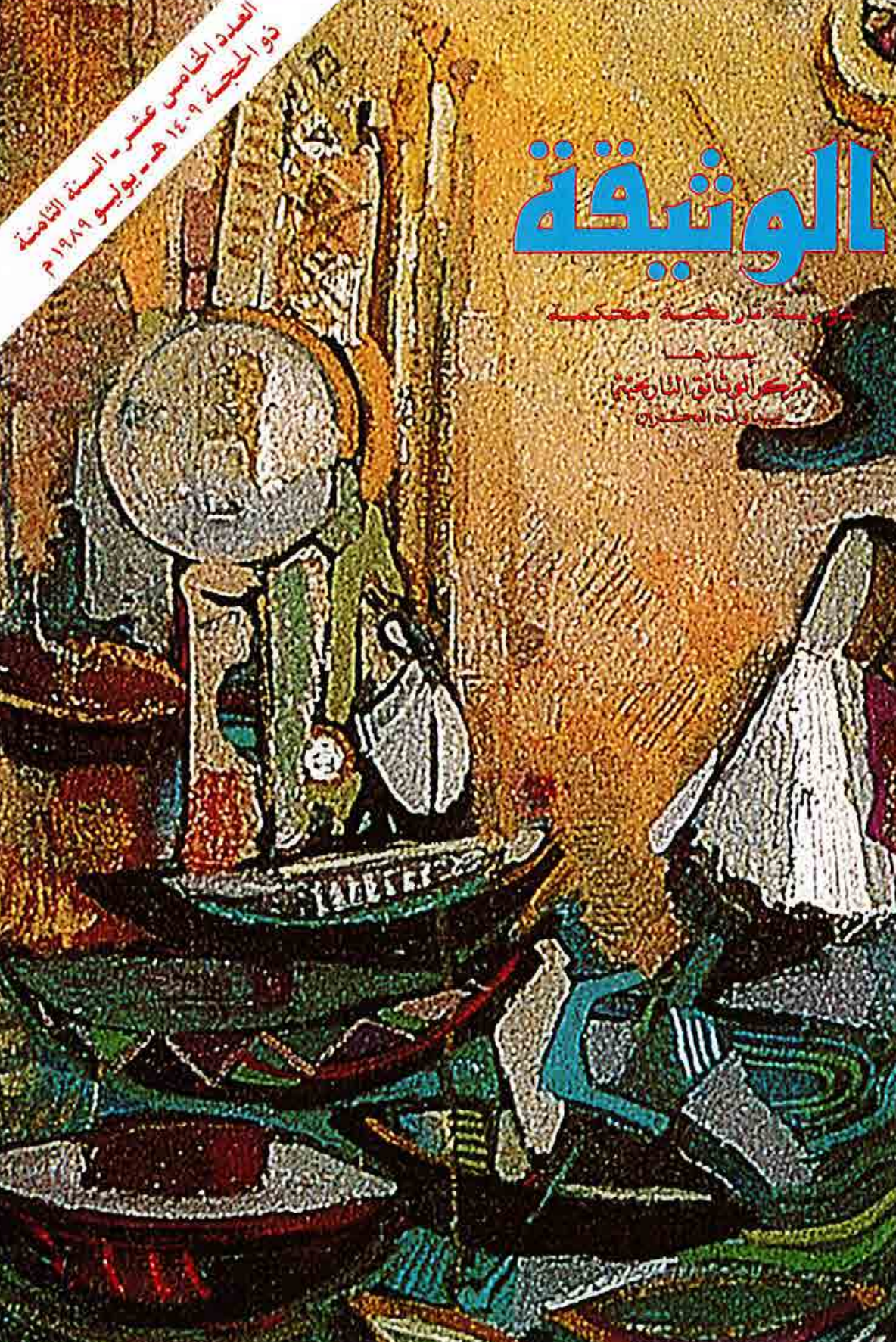

وأحداث الخ
في ظل الحُـ

أتناول في دراستى هذه نقطتين رئيسيتين هما :
أولا : معالجة بعض المصادر التاريخية الخليجية لموضوع عوامل انهيار الاحتلال البرتغالي بالخليج العربي في ظل الحكم العثماني.
ثانيا : أوضاع الخليج العربي في مطلع القرن التاسع عشر كما جاء في مصدر تاريخي مغربي معاصر.

أولا : معالجة بعض المصادر التاريخية الخليجية لموضوع عوامل انهيار الاحتلال البرتغالي بالخليج العربي في ظل الحكم العثماني :

ان القاء نظرة عامة على الادوار الرئيسية التى قام بها جناحا الوطن العربي في المشرق والمغرب عند مطلع العصور الحديثة بوجه خاص، تؤكد لنا الحقائق التالية :

١ ـ لأول مرة يرتبط الجناحان مباشرة عن طريق الرحلات البحرية التى قام بها الرحالة الاوربيون والبرتغاليون والاسبانيون بصفة خاصة.

٢ ـ لقد تعرض جناحا الوطن العربي في المغرب والمشرق لاخطار خارجية بسبب الموقع الجغرافي وغنى المنطقة واستهدفت

ليج العربي
كم العثماني

بقلم : الدكتور
عبدالكريم
كريم (المغرب)

الحملات العسكرية البرتغالية عند احتلال مدينة سبته سنة ١٤١٥م ومهاجمة الخليج العربي سنة ١٥٠٨م التوغل في قلب الوطن العربي لاستغلال الارض واستعباد السكان وتهديد المنطقة في مقوماتها الدينية والروحية والقومية.

٣ ـ ظلت جبهتا الوطن العربي قلعتين حصينتين في مواجهة التحديات الاستعمارية الخارجية وبذلتا من التضحيات بالنفس والمال والأهل والولد ما خلده تاريخنا العربي في صفحات مشرقة ناصعة.

٤ ـ لقد أفسد صمود الجبهتين العربيتين في المشرق والمغرب على الغزاة كل محاولة للتدخل والتمركز والاحتلال، فكان ان نجا الوطن العربي من اخطار كانت تهدده في وجوده ومصيره.

٥ ـ نجاح المجاهدين المغاربة في القضاء على الحملة البرتغالية التى قادها الملك البرتغالي (دون سباستيان Don Sibastian) بوادى المخازن قرب مدينة القصر الكبير يوم الاثنين ٣٠ جمادى الاولى عام ٩٨٦ هـ الموافق ٤ اغسطس ١٥٧٨ م اراح الخليج العربي والجزيرة العربية من عدو خطير ظل يتوعد المنطقة ويهددها طوال ثلاثة ارباع القرن السادس عشر ومكن المجاهدين في الخليج العربي من القضاء على قواعد احتلاله وتصفية وجوده.

والمؤرخ المغربي المعاصر عبدالعزيز القشتالي في كتابه «مناهل الصفا في موالينا الشرفا» خير من يتحدث لنا عن معركة وادى المخازن وأهم نتائجها وكيف انتهى الأمر بعد القضاء

على الحملة البرتغالية ومقتل الملك البرتغالي بتدخل الملك الاسباني فيليب الثاني خال الملك البرتغالي على رأس حملة عسكرية وضم الامبراطورية البرتغالية وتوحيد شبه جزيرة ايبريا عام ١٥٨٠م. كان لمعركة وادى المخازن صدى كبير في المشرق العربي، وقد دون الرحالة المغربي المعاصر أحمد بن القاضي في مخطوطه «المنتقى المقصور» جانبا من ذلك : «ومما شاهدته من سيرة أهل المشرق بأهل قطرنا حينئذ لما انتهى اليهم خبر الغزوة العظيمة مايكل عن وصفه اللسان قائلين : هذا من أهل الغزوة المشهورة بما لا يدركه الا من شاهد ذلك، وصار لنا بذلك بينهم حظ عظيم» (ص ١٠١). ويضيف قائلا :

«أن أمرها عظيم على الترك (العثمانيين) جدا غيرة منهم أن يكون مثلها على يد أمير عربي فامتلأوا منها غيظا وامتلأ العرب منها فرحا وسرورا» (ص ١٠١). ومن جهة أخرى فقد سجل أحد الشعراء المعاصرين بالمغرب الكثير من هذه الاحداث السياسية والأمال التى اصبح عرب المشرق يعلقونها على الخليفة المولى أحمد المنصور السعدي بطل معركة وادى المخازن :

١) ان شرق البلاد يرجوك شوقا
مثلما يرتجى طلوع الهلال
فادرك مصر والعراق ويمّم
حرم الحي الكم خير آل
(الشاعر عبدالعزيز القشتالي: مناهل القشتالى ص ١٥٧)

٢) وهذي الشأم وهذى العراق
ستمسي لكم وهي دار القرار
(الشاعر علي بن أحمد المسفيوى: مناهل الصفا ص ١٦١)

٣) وتخفق بالوادى المقدس راية
عليك وتلوى فيه الوية حمر
(الشاعر محمد علي الهوزالي: مناهل الصفا ص١٤٢)

٤) ومما يؤكد صدى معركة وادى المخازن في الخليج العربي البيت الشعري التالي للشاعر المغربي عبدالعزيز القشتالي يخاطب الخليفة المنصور السعدى :

فكم هنأت ارض العراق بك العلا
ووافت بك البشرى لاطراف عمان

ان الدافع الذي جعلني اتعرض لذكر معركة وادى المخازن ونتائجها والصدى الذي احدثته في الشرق العربي خلال الربع الاخير من القرن السادس عشر، هو اننى وقفت على مصدرين تاريخيين يتحدثان عن الاحتلال البرتغالي للخليج وعوامل انهياره : الأول لصديقنا الاستاذ الدكتور مصطفى عقيل الخطيب الاستاذ بجامعة قطر وعنوانه «التنافس الدولي في الخليج العربي» وقد أهدانى اياه عندما حضر «ندوة

الملك محمد الخامس الدولية» في الرباط بالمغرب (نوفمبر ١٩٨٧).

والثاني للاستاذة بالمملكة العربية السعودية نوال حمزة يوسف، نالت به درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي وعنوانه «النفوذ البرتغالي في الخليج العربي».

جاء في كتاب «التنافس الدولي في الخليج العربي» (ص ٤٥ ـ ٤٦) عند التحدث عن اسباب تحرير هرمز ذكر للعوامل التى أدت الى نهاية الامبراطورية البرتغالية في الشرق بصفة عامة، منها : «ان الشعب البرتغالي كان محدود العدد.. وان شعوب المستعمرات كانت تكن لهم الكراهية.. وان عامل الوقت لعب دورا هاما في انهيار الامبراطورية الشرقية.. ومنها ان البرتغال فقدت استقلالها عام ١٥٨٠ وانضمت الى العرش الاسباني».

فكيف فقدت البرتغال استقلالها، وما اسباب ذلك ؟ انها معركة وادى المخازن. وبالنسبة لمؤلف الاستاذة نوال «النفوذ البرتغالي في الخليج العربي» (ص ١٨١) عند التحدث عن «بداية التنافس بين القوى الاوربية للسيطرة على تجارة الخليج العربي» أوردت مراحل هذا التنافس وكيف ظهرت قوى جديدة اوربية منافسة للبرتغال في الخليج دون تعليل اسباب ضعف الوجود البرتغالي في الخليج «ففي سنة ٩٨٨ هـ ١٥٨٠ م استولى فيليب ملك اسبانيا على البرتغال بعد وفاة ملكها هنري» فما الاسباب التي جعلت الملك الاسباني يستولي على البرتغال ويوحد الامبراطوريتين الاسبانية والبرتغالية ؟ إنها مرة ثانية معركة وادى المخازن التي تحطمت فيها القوات العسكرية البرتغالية وقتل فيها الملك البرتغالي دون سباستيان والألاف من وجهاء القوم في البرتغال. والملك هنرى هو الكاردينال هنرى عم دون سباستيان الذي تركه نائبا عنه في لشبونه عند قيادته للحملة العسكرية ضد المغرب.

ثانيا : أوضاع الخليج العربي في مطلع القرن التاسع عشر كما جاء في مصدر تاريخي مغربي معاصر :

من المصادر التاريخية المغربية التى انفردت بتدوين معلومات هامة عن الخليج العربي في مطلع القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى كتاب :

١ ـ الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا.

٢ ـ مخطوط (الترجمان المعرب على دول المشرق والمغرب) ـ دار الوثائق بالرباط (د ٦٥٨) وهما لابي القاسم الزياني (١١٤٧ ـ ١٢٤٩ هـ) (١٧٣٤ ـ ١٨٣٥ م).

فقد ساعدته الظروف كسفير للسلطان محمد الثالث لدى السلطان العثماني في اسطنبول على الوقوف على كثير من اخبار المشرق العربي ومنطقة الخليج العربي بوجه خاص وهو يقول : «واعتمدت فيما سطرت على ما طالعته من مصادر التاريخ.. وعلى ما طالعته بالقسطنطينية العظمي أيام سفارتي لها من سلطات المغرب بحضرة السلطان العثماني عبدالحميد رحمة الله عليه.. فقد أمر الوزير قيمها ان يفتح لي الباب ويطلعني على دفتر الكتب وكل كتاب تعلقت به همتي ينزله لي أطالع فيه واقيد.. وقد طالعت منها تواريخا متعددة كل واحد يشتمل على عدة مجلدات». (الترجمان ص ٢ ـ ٣).

يضاف الى ذلك مشاهداته وما سمعه ممن التقى بهم من الحجاج في موسم الحج حيث يقول : «وانما رسمت فيها ما شاهدته في الاقاليم التى بلغتها وغيره نقلته ممن اجتمعت بهم بالحرم الشريف ومكة». (الترجمانة ص ٣٣).

فما أهم المعلومات التى دونها المؤرخ الزياني عن الخليج العربي في مطلع القرن التاسع عشر ؟ يمكننا ان نرتب هذه المعلومات كالتالي :

١ ـ معلومات عامة عن طبيعة المنطقة.
٢ ـ وصف عام لعمرانها وعناصر سكانها وبعض مذاهبهم.
٣ ـ جوانب اقتصادية.
٤ ـ الاوضاع السياسية.

١. طبيعة المنطقة :

كان الخليج العربي يعرف بالخليج الاخضر، وكان ينقسم الى بحار داخلية عديدة تحمل اسماء المناطق التى تجاورها الابلة ومكران وكرمان الى ان ينتهى الى الابلة حيث عبادان فهناك ينتهي آخره ثم ينعطف راجعا الى جهة الجنوب فيمر ببلاد البحرين واليمامة ويتصل بعمان.. وهناك اتصاله بالبحر الهندى وطول هذا البحر اربعمائة فرسخ واربعون فرسخا) (١).

وهذا الخليج (بحر مبارك كثير الخير دائم السلامة وطي الظهر قليل الهيجان بالنسبة الى غيره) ويتميز بكثرة الجزر (وفيه جزائر كثيرة معمورة مسكونة) (٢).

وبارتفاع الحرارة (مدينة البحرين كثيرة المياه شديدة الحر كثيرة الرمال) (٣).

كما توجد به مناطق تتصف بالخصب وغزارة المياه (مدينة لار وهي حسنة كبيرة كثيرة المياه والبساتين) (٤).

ومدينة (قيس وهي المسماة سيرآن.. مدينة عظيمة ذات بساتين ومزارع.. ثم مدينة هجر.. وهي كثيرة الانهار والاشجار) (٥).

٢. عمران منطقة الخليج العربي :

وصف المؤرخ الزياني حوض

الخليج العربي واورد ذكر عدد من المدن الواقعة على ضفافه فقال :

«وقاعدة أرض عمان مدينة نزوا.. ومن مدنها مدينة هرمز على ساحل البحر ويقابلها في البحر جزيرة هرمز الجديدة وبها حرون يسكنها سلطان عمان.. وبعد مدينة هرمز مدينة جنح بال على ساحل البحر ايضا.. وبعدها مدينة قيس وهي المسماة سيرأن مدينة عظيمة.. ثم بعدها مدينة البحرين.. وبعدها مدينة القطيف.. ثم مدينة هجر وتسمى اليوم الاحساء [٦].

ويضيف في مكان آخر عند حديثه عن العمران في الخليج العربي :

«ثم مدن جزيرة العرب أولها الاحساء ثم مدينة الاحقاف ثم مدينة أصحاب الاخدود.. ثم مدينة ارم ذات العماد ثم مدينة اراص.. ثم مدينة البحرين ثم مدينة جوهي اليمامة ثم مدينة الحجر.. ثم مدينة حارك بها مدن ايضا ثم مدينة الخط قرب عمان ثم مدينة الرس قرب جلاجل ثم مدينة سليمان ثم مدينة سلجين ثم مدينة سويقة ثم مدينة الشحر بعمان ثم مدينة هجر قرب عمان». [٧].

وعن اجناس السكان بالخليج العربي أكد الزياني عروبة المنطقة[٨] حين قال : «فهذه عمائر جزيرة العرب من اليمن الى القادسية ومدائنها وهي باب العرب» [٩].

«مدن جزيرة العرب أولها الاحساء..» [١٠]. مدينة هجر يسكنها عرب بني حنيفة وهي بلدهم من قديم الزمان» [١١]. «بمدينة قيس.. العرب هم الذين يغوصون على اللؤلؤ فيما بينها وبين البحرين» [١٢]. كما أورد عنصر التركمان والعجم «ومدينة جنح بال على ساحل البحر ايضا وسكانها تركمان وهم الذين يعمرون تلك المفاوز وهم أهل شجاعة وقسوة» [١٣]. «ومدينة قيس.. سكانها عجم وبها بعض العرب» [١٤].

ومن بين هؤلاء السكان من هو على مذهب الاباضية «وقاعدة ارض عمان مدينة نزوا وأهلها اباضية». «ومدينة القطيف يسكنها العرب». [١٥]. وهذه البلاد كلها تسودها السلفية [١٦].

٣ ـ الناحية الاقتصادية :

وصف ابو القاسم الزياني في «الترجمانة الكبرى» ما حبته الطبيعة من خيرات لمنطقة الخليج العربي، فهو «بحر مبارك كثير الخير دائم السلامة.. به مغاص اللؤلؤ الذي خرج منه الحب البالغ الكبير وربما وقعت الدرة اليتيمة التي لا نظير لها» [١٧].

«وفي جزائره معادن أنواع الياقوت والاحجار الملونة النفيسة ومعادن الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والسنبادج والعقيق وأنواع الطيب والأفاويه[١٨] «وفي جزيرة هرمز الجديدة.. معدن الملح الاندراني في سباخ بها» [١٩] وعن الظروف التي يتكون فيها الدر اللؤلؤ بمياه الخليج العربي ذكر :

«يزعم البحرينيون ان الصدف الدرى لا يكون الا في بحر تصب فيه الانهار العذبة فاذا اتى الربيع كثرت هبوب الريح في البحر ورفعت الامواج ويضطرب البحر فاذا كان الثاني عشر من نيسان خرجت الاصداف من قعور هذه البحار ولها اصوات وقعقعة وبوسط كل صدفة دويبة صغيرة وصفاقتى الصدف لها كالجناحين وكالسور تتحصن بهما من عدو متسلط عليها وهو سرطان البحر.. وفي اليوم الثاني عشر من نيسان لا تبقى صدفة في قعور هذه البحار المعروفة بالدر واللؤلؤ الا صارت على وجه الماء وتفتحت حتى يصير وجه الماء ابيض كاللؤلؤ وتأتى سحابة بمطر عظيم ثم تنقشع السحابة وقد وقع في جوف كل صدفة ما قدره الله تعالى واختار.. وافضل الدر المتكون في هذه الاصداف القطرة الواحدة والاثنتان والثلاثة وكلما قل العدد كان اكبر جرما واعظم قيمة والمتكونة من القطرة الواحدة هي الدرة اليتيمة التى لا قيمة لها» (٢٠).

ويبدو ان الولاة كانوا يتعاطون تجارة اللؤلؤ: «وعندهم مغاصات اللؤلؤ تحت حكم سلطانها» (٢١).

وفي المجال الاقتصادي نجد ايضا اشارات الى بعض المزروعات في المناطق الخصبة: «مدينة قيس وهي المسماة سيرآن.. مدينة عظيمة ذات بساتين ومزارع» (٢٢). «مدينة هجر.. كثيرة الانهار والاشجار بها من التمر الآن محجي» (٢٣). والى المبادلات التى كانت تتم بين مناطق الخليج «جزيرة هرمز الجديدة.. يجلب لأهلها التمر من عمان والبصرة لأكلها مع السمك» (٢٤).

٤ ـ الأوضاع السياسية في الخليج العربي:

من دراستنا لما ورد في الترجمانة الكبرى للزياني نلاحظ:

١ ـ وجود وحدات سياسية مثل سلطنة عمان (ومن مدنها مدينة هرمز على ساحل البحر ويقابلها في البحر جزيرة هرمز الجديدة وبها حرون يسكنها سلطان عمان (٢٥).

٢ ـ قيام بعض الجماعات المحلية بفرض نفوذها (مدينة جنح بال على ساحل البحر وسكانها تركمان وهم الذين يعمرون تلك المفاوز وهم أهل شجاعة وقسوة. (٢٦). ومدينة القطيف (٢٧).

٣ ـ سيطرة السلفيين على مناطق واسعة من البلاد «وأما اقليم الشرق من سواد الى العراق الى مغايص الفرات إلى البحرين الى عمان الى نجران الى اليمامة الى حدود اليمن فقد تبعت السلفية (٢٨).

٤ ـ ضعف السلطان العثماني في

منطقة الخليج العربي «ولما زاحمتهم الروم ببلاد الشمال وحاربوها.. وضعفت دولتهم عن مقاومة اجناس الروم وشغلوا بحربهم استبد على السلطان العثماني ملوك العجم وكل واحد منهم ضبط اقليمه وقطع نظره عن العثماني وعن الباشا الذي يأتي من عنده، ولم يبق الا ذكره في الخطبة ورسمه على السكة.. والممالك البحرية وممالك العرب وكل الممالك التي ذكرنا في بلاد العجم فقد خرجت عن ملكهم» (٢٩).

٥ ـ تحريض السلطان العثماني لوالي مصر محمد علي على محاربة السلفيين: «قلت وهذه البلاد كلها استتبعت السلفية.. وقد بلغنا ان والي مصر من امراء الدولة العثمانية تصدى لهذا المسمى وقام له بخيله ورجله ومهد درب الحجاز وعمر الحرمين بجنده وهيأ له جرائد من العساكر تبعده الى اقصى بلاده واخرجوه عن قرار عزمه والامور مستمرة على ذلك» (٣٠).

الهوامش

١ ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٢٩٣
٢ ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٢٩٧
٣ ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٤ ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٥ ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٦ ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٧ ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٤٩٢
٨ ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٩ ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
١٠ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
١١ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
١٢ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
١٣ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
١٤ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
١٥ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
١٦ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٤٩٤
١٧ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٢٩٧
١٨ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٢٩٧
١٩ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٢٠ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٣٤٦
٢١ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٢٢ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٢٣ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٢٤ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٢٥ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٢٦ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٢٧ـ الزياني ـ الترجمانة ص ١٩٠
٢٨ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٣٥٥
٢٩ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٣٥٥
٣٠ـ الزياني ـ الترجمانة ص ٣٩٤